الفكر البشري بين قداسة النص ووطأة الواقع
الحوار بين الأديان الكتابية أيموذجا

خديجةالعيدودي

كليةالآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان–تونس

المقدمة:

يعكس المقدّس حركة الفكر البشري والكوني، ويمثّل شبكة شديدة التعالق من النصوص المتداخلة التي تنشأ ضرورة من رحم المجتمع وهو ما يجعلها تنغرس في حياة الإنسان، وتتأثّر بظروف العيش لديه وتتفاعل مع مختلف الحقائق الثقافية المحيطة به معبّرة عن نجاحاته وإخفاقاته معا.

ولا ريب لدينا في وجود روابط قرابة تجمع بين هذه النصوص الكونية التي تروي تاريخا مقدّسا مقترنا بعمق الثقافة الإنسانية ومرتبطا ببدايات الفكر البشري حين كانت النصوص، بعدُ، في وضع المنطوق، كلاما متلاحقا متناسلا يتفاعل مع الحقائق التاريخية المحيطة به.

ومعالجة هذه النصوص والتدقيق فيها ليس بالأمر الهيّن إذ يجدر بالدارس بداية أن يكون على وعي بالوحدة التاريخية للأديان، وأن يكون قادرا على مواكبة نسق تلاحقها ومتابعة تفاصيل رحيلها الدلالي، فالنصوص المقدّسة ليست نصوصا ثابتة يحكمها الجمود بقدر ما هي نصوص ذات طابع دلالي حركي يتأثّر فيها اللاحق بالسابق في إطار التفاعل الثقافي واللغوي.

لكن يجدر بنا التنويه في هذا الصدد بأنه لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يكون النّص اللاحق نظيرا للنّص السابق رغم اشتراكهما في بعض الحقائق، فالعلاقات بين الأديان الكتابية الكبرى هي علاقات مخصوصة تمنح كل واحدة منها مرونة وأصالة مطلقة تنفتح على مفارقات شتّى تلتقي جميعها في الفكر البشري.

لذلك تبدو الحاجة ملّحة اليوم إلى توطيد علاقتنا بعلم الأديان والخوض فيه والتعويل عليه حتى يكون بمقدورنا التعرّف على ذواتنا من خلال الآخر الذي يمثّل صنوا لنا وامتدادا لفكرنا وانعكاسا لماضينا رغم وطأة الواقع الذيماانفك يشوّش نظرتنا إلى الأشياء من حولنا، وعلم الأديان كفيل، في تقديرنا، بمدّ جسور التواصل ودرء كثير من الشبهات التي تشوب علاقتنا بالآخر وتُنشئ قطيعة بيننا وبينه.

إنّ علم الأديان، في تقديرنا، على اختلاف فروعه وتشعبها من شأنه أن يُسهم إسهاما كبيرا في توضيح مسائل ظلّت لفترة طويلة من الزمن دون حلّ ويُعيد تشكيل المضمون الأصلي والهدف الرئيس الذي يرمي إليه بصفة صريحة بعيدا عن إحراجات لا طائل منها في إطار دراسة موضوعية تُعنى بالمبحث الديني بصفة مباشرة ومستقلّة وترتقي به إلى مصّاف العلم وهو ما سيضمن بالضرورة تكريس ثقافة الحوار مع الآخر للتعرّف على مقدّساته والاهتداء للنظر من زاويته لاختبار وجهات النظر المتباينة والفروق القائمة بيننا وبينه ومحاولة مدّ جسور التسامح والألفة عبر فكّ الارتباط مع كلّ ما له علاقة بالتشدّد والعدوانية.

ونسعى من خلال هذه المقالة، والتي وسمناها بـــ **"الفكر البشري بين قداسة النّص ووطأة الواقع: الحوار بين الأديان الكتابية أنموذجا"** إلى الدعوة لضرورة محاورة النصوص الكتابية والعمل على التدقيق فيها ودراستها من مداخل شتّى والمقارنة بينها بالانطلاق من تلك النصوص نفسها في تمثّل الفكر الديني والإنصات إلى الأصوات التي تنبع من داخلها، فتجمعنا بالآخر وتطوّر علاقتنا به في إطار ثقافة كونية تنأى بنا عن جميع أشكال الإقصاء والانغلاق.

1ـ بين علم اللاهوت وعلم الأديان:

ألقى التراث الإغريقي ـ الروماني بضلاله على الكنيسة المسيحية التي انساقت إلى مجاراة الفكر الفلسفي الذي يكتنفه لتندرج في ثناياه بصفة تدريجية عبر تشكّل علم اللاهوت، وهو ما استدعى ضرورة صياغة وعي نقدي بالمسائل الدينية خاصّة بعد ظهور العديد من الأفكار والعقائد والتساؤلات التي كانت تجابه الكنيسة، "ويُعرّف اللاهوت بأنه المصطلح المقابل لمصطلح (ثيولوجي) *Theology* الانجليزي، وهو مرّكب من (ثيوس) ومعناها اله و(لوجوس) ومعناها علم، فهو إذًا علم الإلهيات، ويعرّف على أنه التأمّل المنهجي في العقائد الدينيّة، والكلمة تستخدم عادة للإشارة إلى دراسة العقيدة المسيحية"[1].

ويهتّم علم اللاهوت، بدرجة أولى، بالجانب العقائدي، فقد نشأ في وسط ديني مشحون بتداعيات عدّة لعلّ أبرزها التراث اليهودي الذي رافق تشكّل العقائد المسيحيّة، وانساب بين طيّات النصوص الإنجيليّة التي تأثّرت في مواضع كثيرة بالشريعة اليهودية التي نشأت في ظلّها وهو ما ظهر جليّا في عديد التعاليم التي صاغها السيّد المسيح وتلاميذه من بعده.

[1] أنهار أحمد محمد، اللاهوت المسيحي: نشأته وطبيعته، دار الزمان للنشر والتوزيع، ط1، سوريا، 2010.

لا ريب في أنّ التراث الديني اليهودي الذي تشكّل منذ مئات السنين قد وجّه، في موضع ما، العقائد المسيحيّة ولكنّ الجدير بالذكر هو أنّ علم اللاهوت ارتبط ارتباطا وثيقا بالمسيح "لاعتقادهم أنه هو ابن الله حقيقة وأنه الله نفسه فاللاهوت يشمل طبيعة الله والتي يمثّلها أقنوم الابن، الأقنوم الثاني في الذات الإلهية، فيُدخل فيها تفاصيل لاهوته، وناسوته، وطبيعته"[1].

وقد انصرف علم اللاهوت، في بداياته إلى حشد البراهين وتجميعها للاستدلال على وجود الله فقد اعتبر اللاهوت "التعبير، أو الشرح، أو صياغة معرفتنا لله بواسطة يسوع"[2]، وهو ما يجعله "خطابا حول الله"[3] بامتياز، خاصة في بداياته حدّ نعته بـــ"علم الإيمان"[4]، وقد اعتبر حمادي المسعودي أنّ علم اللاهوت، بهذا الاعتبار، "ليس له وجود خارج موضوعه أي خارج كلام الله أو الوحي الإلهي"[5]، فالغرض الرئيس الذي ينصرف إليه هو البحث في الذات الإلهية، ولكل بحث عوامله، وأدواته، ووظائفه التي ساعدت على صياغته، فاللاهوت المسيحي لم ينشأ دفعة واحدة إذ كان نتيجة لبروز عديد الأفكار التي كانت تجابه الكنيسة، وقد اعتمد على مصادر استمّد منها بقاءه واستمراريته، من بينها، كما سبق أن أشرنا، الفكر اليهودي وما يحويه من تراث سابق، إلى جانب تعاليم المسيح والأفكار الفلسفية التي كانت منتشرة، وقد اعتمد في انتشاره على عوامل ساعدت على صياغته لعلّ أبرزها دخول شاول الطرسوسي[6] إلى المسيحية "فكثرت الرسائل والأناجيل عن سيرة السيّد المسيح وتعاليمه وظهرت فرق، وطوائف، ومبتدعون، وكلّ واحدة منها تخطئ وتكّفر الأخرى وتعُدّ تعاليمها هرطقة، وظهرت المخاصمات واشتّدت المنازعات، كل

---

[1] م.ن، ص17.

[2] م.ن، ص17؛ وهو التعريف الذي قدّمه المطران كوركيس كرمو لعلم اللاهوت.

[3] انظر: karl Rahner/Herbert Vorgrimler, Petit dictionnaire de théologie catholique, E. du Seuil, 1970, article : théologie.

[4] انظر: Claude Geffré, théologie, Encyc. Universalis, corpus 23, p 652

[5] حمادي المسعودي، الظاهرة الدينيّة من علم اللاهوت إلى علم الأديان المقارن: بحث في علم الأديان المقارن، بحث مرقون، ص10.

[6] من تلاميذ الدين اليهودي، كان من أكبر المناوئين للمسيحيّة وقد كان اسمه العبري "شاول الطرسوسي" نسبة إلى طرسوس قبل اهتدائه للمسيحيّة حيث لُقبّ بـ"بولس الرسول لسان العطر" يعود الفضل في نجاحه في إنشاء الفكر اللاهوتي إلى التراث الديني اليهودي الذي يحمله، وهو ما جعله قادرا على المراوحة بين الديانة اليهودية والفلسفات الهيلينيّة اليونانية، وقد دُعيت مسيحيّة بولس بالمسيحيّة اليونانية لتأثير طابع العقل اليوناني الميتافيزيقي المولع بالنقاش والجدل في تمثّله الفكري وممارساته العقائدية.

منها يعتقد في ذات المسيح، ولاهوته، وناسوته، وأزليته، وانبثاقه ما لا يعتقده الآخرون، ومن بين هذه المعتقدات المتضاربة انبثق علم الكلام المسيحي أو "علم اللاهوت" "[1].

وقد لعبت المجامع المسيحيّة دورا كبيرا في تثبيت علم اللاهوت المسيحي وإقراره عقيدة مقدّسة، وقد كانت هذه المجامع نتيجة لتراكمات وقعت فيها الكنيسة تحت وطأة الهرطقات المتتابعة والبدع الدينيّة والخلافات العقائدية التي طالت الإيمان المسيحي إضافة إلى الخلاف الناشب بين كنائس روما وكنائس المشرق "ولم يتّم لهم ذلك إلاّ في مجمع نيقيّة سنة 325م وما بعدها من مجامع، فطوال الحقبة الممتّدة ثلاثة قرون كانت العقائد المسيحيّة تتأرجح بين أخذ وردّ تتجاذبها اعتراضات ورفض الموحدين من جهة، وتعدّد مناهج الفكر اللاهوتي من جهة أخرى، ممّا استدعى عقد هذه المجامع"[2].

ومن الجدير التنويه بالأساس الفلسفي الذي احتضن البيئة المسيحية وأثّر في مسار تشكّلها تبعا لاعتماد علم اللاهوت على الأفكار الفلسفية التي كانت منتشرة في توجيه مساره "فاللاهوتيات هي علم في الاستدلال، ما دامت تدرك غايتها، وهي الله الموحي به، بطريقة الاستدلال، ومنطلقا من أصول ومبادئ ومنتهيا إلى نتائج"[3]، ويبرز تأثير الفلسفة في ادّعاء علم اللاهوت اعتماد المنهج الاستدلالي العقلي في تفسير الظواهر وتبريرها بالإضافة إلى ما استقاه من مصطلحات عدّة ذات مرجعيات فلسفية من قبيل (الجوهر)و (العرض)و (الأقانيم) .. وغيرها.

وقد استدعيت الفلسفة ضمن علم اللاهوت لغايات دفاعية صرفة الغرض منها تحصين التعاليم التي أتى بها المسيح وتلاميذه من بعده والتي مثّلت الأساس الذي يقوم عليه الفكر اللاهوتي في مجمله، وقد ارتبط العقل في الفكر اللاهوتي بالإيمان فتلازما في الاستدلال والبرهنة إذ يعمل العقل في علم اللاهوت "وقد أشع الإيمان فيه. حينئذ، لا يجاوز حدوده، ولا تنتابه نفحة الكبرياء التي ظهر الفكر الحديث، غالب الأحيان، منطبعا بها"[4]، وذلك تبعا للفروق القائمة بين العلمين فالفلسفة "طبيعية" واللاهوت "فائق للطبيعة"، فتصبح الفلسفة بذلك أداة من أدوات الاشتغال التي يصطفيها علم اللاهوت في الاستدلال على

[1] أنهار أحمد محمد، اللاهوت المسيحي: نشأته ـ طبيعته، ص168.

[2] م.ن، ص197.

[3] لويس غرديه/ ج.قنواتي، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحيّة، تعريب: الشيخ صبحي الصالح والأب فريد جبر، دار العلم للملايين، ط2، بيروت 1983، ج3، ص18.

[4] لويس غارديه/ ج. قنواتي، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحيّة، ص20.

صفاء العقيدة واكتمالها ويصبح علم اللاهوت "جزءًا من التدبير العام المتعلّق بنجاة الإنسان"[1]في سبيل ترسيخ أصالة التقليد الديني (tradition) وتدعيم يقينيّة الإيمان أو "النور الفطري" وتفوّقه على العقل "وبعبارة أخرى يمكن أن نقول إنّ علم اللاهوت علم معياري يكون تمشّيه مشروطا دائما بالإيمان في حقائقه الخاصّة به، فيكون بذلك مُقصيا لغيره بطبيعته [..] وهو ـ علاوة على ذلك ـ لا يعوّل في استنباط أفكاره إلاّ على النصوص المقدّسة والتقليد الديني أو السّنة الدينيّة، لذلك يمكننا القول إنّ الموضوعية في البحث لا تمثّل مشغلا فكريّا لدى عالم اللاهوت لأنّه يرى أنّ ما توصّل إليه هو الحقّ المطلق"[2]، وهو ما انعكس بصفة مباشرة على الخلفيّات الفكرية والنفوذ العقائدي والاجتماعي لرجال الدين "مقابل مساندتهم اللامشروطة للقوى الأساسية، ومن هنا ليس في الإمكان بالمرّة الحديث عن الصدق العقائدي لرسالة دينيّة أو دعوة ما ولكن فقط عن تنسيق بين النظامين السياسي والإكليروسي. فالنباهة تحول دون الانخداع بالمقولة اللاهوتية التي ليست في الحقيقة سوى بهتان: فهؤلاء المنعوتون باسم الأرثوذكسية هراطقة، ليسوا في الواقع سوى عصاة سياسيين"[3]

تلازم الإيمان والعقل في إطار علم اللاهوت الذي سخّر الفلسفة لخدمة أغراض عقائدية صرفة في إطار الاستدلال والبرهنة على صحة التعاليم المتوارثة والدفاع عن السَنن/ التقليد المسيحي الذي لم يتخذ شكله النهائي إلا بعد الإضافات التي قدّمها علم اللاهوت لما تركه المسيح وتلاميذه.

امتّد "الخطاب حول الله" قرونا طويلة طالت الثقافة العربية الإسلامية التي انخرطت في الجدل العقائدي الذي ذكّته الفلسفة اليونانية والمناظرات والسّجالات الفكرية وثقافة الردود على أصحاب العقائد المخالفة، وقد مثّل "علم الكلام" نظيرا لمصطلح"علم اللاهوت"، وقد اكتسب "مصطلح "الكلام" معاني التحاور والمناقشة والجدل [..] والكلام هو العلم المعنيّ بترسيخ العقائد الدينيّة، عن طريق إيراد البراهين ونفي الشكوك"[4]

---

[1] م.ن، ص34.

[2] حمادي المسعودي، الظاهرة الدينيّة من علم اللاهوت إلى علم الأديان المقارن: بحث في علم الأديان المقارن، ص11.

[3] ميشال مسلان، علم الأديان: مساهمة في التأسيس، تعريب: عز الدين عناية، المركز الثقافي العربي، ط1، الإمارات العربية المتحدة، 2009، ص 43.

[4] ل. غارديه، مقال "علم الكلام"، تعريب: محمد غريب جودة، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج24، ص7369.

وقد حدّد ابن خلدون علم الكلام بأنه "علم يتّضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات، عن مذاهب السلف وأهل السنّة. وسرّ هذه العقائد الايمانية هو التوحيد"[1]، وقد عُدّ هذا التحديد الأشدّ وضوحا لما فيه من دقيق الإحالة على "علم الكلام" وضبط مجاله ومصدره ووظائفه وغاياته، ومن العسير تحديد الفترة الدقيقة التي نشأ فيها هذا العلم أو العوامل التي أسهمت في هذه النشأة، فعلى الأرجح تعود إلى مؤثرات خارجية "كالمناقشات مع الزنادقة المزدكيين حول الخير والشرّ في سلوك البشر، ومع اللاهوتيين المسيحيين الدمشقيين حول "كلمة الله" وكذلك اكتشاف العلم والفلسفة الإغريقيين "[2].

انفصل "علم الكلام" شأن "علم اللاهوت" عن البشري فقد وقع التركيز فيهما على الأمور الإلهية والمسائل العقدية وهو ما جعلهما يصنّفان كلّ ما يحفّ بهما من علوم في خانة العلوم الأدوات لخدمة غايات إيمانية صرفة، "ومع ذلك تبقى الحقيقة أنّ "علم الكلام" قطعا ليس تحويرا عربيا للاهوت المسيحي أو المزدكي، بل هو علم نشأ داخل المجتمع الإسلامي وحافظ على أصالته"[3].

وقد استّمرت العناية بالعقيدة والاشتغال على النصوص المقدّسة في المباحث الحديثة لكن بالاعتماد على مداخل ومقاربات جديدة اعتنت بالظاهرة الدينية وخاضت تفاصيلها من خلال تفرّع علوم جديدة من قبيل تاريخ الأديان وعلم الأديان، وعلم الأديان المقارن التي اتخذت مناهج وغايات مختلفة، وقد ظهرت في القرن التاسع عشر تسميات تختلف بحسب التقاليد وبحسب المنهجيات المعتمدة، فقد "كان ابتداء تشكّل الملامح الأولى لعلم الأديان مع ميلاد التفكير العقلاني الإغريقي الذي رأيناه، منذ تأسّست حالة قطيعة أو على الأقلّ حالة تراجع في مكانة الدين الرسمي [..] فالتحرّر من السلطة اللاهوتية لكنيسة تمارس الإكراه جعل من الإنسان الحكَم الوحيد لحقيقة الروابط التي توّحده مع موضوع إيمانه. فهذا التّوجه العقلي بدأ في رسم صورة أكثر ذاتية لمسائل المقدّس [..] وتبّدت لديه البنية الظاهراتية للدين ضرورية؛ ليس بمعنى تعالي العقائد عن أيّ تفحص ولكن برؤية أكثر تاريخية للمقدّس المُعاش"[4]

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ط1، 1958، ص40.

[2] ل.غارديه، مقال "علم الكلام"، ص7370.

[3] ل. غارديه، مقال "علم الكلام"، ص7370.

[4] ميشال مسلان، علم الأديان: مساهمة في التأسيس، ص ص 42ـ43.

وقد اعتبر حمادي المسعودي أنّ خصائص علم اللاهوت كانت حافزا من الحوافز التي ساعدت على نشأة علم الأديان معتبرا أنّ الاستعمال الأول للمصطلح يعود إلى الألماني ماكس ملّر Max Muller سنة 1867 "وفي الفترة نفسها التي ظهر فيها هذا المصطلح في ألمانيا نادى أ. بورنوف E. Burnouf في فرنسا بتأسيس علم الأديان، وقد ألّف بورنوف كتابا وسمه بعلم الأديان La science des religions، والملاحظ أنّ المفكّرين الباحثين في فرنسا كانوا يميلون إلى استعمال عبارة "تاريخ الأديان" Histoire des religions ثمّ عبارة "التاريخ المقارن للأديان" Histoire comparée des religions مسجّلين بذلك تقدّما جليّا في اتّجاه تحليل أكثر اكتمالا للوقائع الدينيّة، وكانت المباحث الجامعية في فرنسا في تلك المرحلة مصبوغة بالنظريّات الوضعية"[1].

وقد تمّ التركيز في هذه الكتب على التراث الإغريقي اليوناني، أمّا المساهمات العربية الإسلامية فقد كانت قليلة إلاّ أنّ ذلك لا ينفي بأنّ المسلمين كانت لهم مساهمة في دراسة الأديان المقارنة وقد نشأت هذه الحاجة كحاجة قرآنية لأسباب موضوعية، إذ نجد في النّص القرآني حديثا عن أقوام وديانات وخاصّة الديانة اليهودية، وقد تحدّث القرآن عن النصرانية لا عن المسيحية وتحدّث عن اليهودية وعن بني اسرائيل، وقد نشأ بعض هذا الاهتمام عن جدل مباشر يعود إلى السنوات الأولى للدعوة إذ يشير القرآن إلى الصحف (صحف إبراهيم وموسى)، وإلى السبت، وأصحاب السبت والألواح والكلمة (كلمة الله) و يعجّ بعبارات ومفاهيم تتقاطع مع النصوص الكتابية السابقة لفظا ومعنى أحيانا.

وقد كانت الكتابة في الديانات الأخرى ضرورة نشأت من الدفاع عن العقائد الدينية وتحصينها وردّ الشبه عنها، ولعلّ أول من تحمّل عبء الدفاع عن الإسلام ومهاجمة الديانات الأخرى بالأدلّة هم المعتزلة، فقد ظهر أول أشكال الكتابة عن الديانات الأخرى من خلال الكتب والردود التي صاغتها الأعمال المتعلّقة بالملل والنحل وخصوصا مصنّفات الأشعري والبغدادي والشهرستاني وابن حزم الأندلسي فقيه الظاهرية الأكبر صاحب كتاب **الفصل في الملل والأهواء والنحل** الذي اهتّم فيه بتهمة تحريف التوراة التي وردت بالقرآن[2] الذي يقرّ صراحة أنّ التوراة حُرّفت[3] ولُبسّت[4] وغُيّرت وكتمت.

---

[1] حمادي المسعودي، الظاهرة الدينية من علم اللاهوت إلى علم الأديان المقارن: بحث في علم الأديان المقارن، ص13.

[2] انظر: ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، قسم تحريف التوراة.

[3] [يحرّفون الكلم عن مواضعه] سورة النساء، الآية 46.

[4] [ولا تَلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون] سورة البقرة، الآية 42.

لكنّ الجدير بالقول أنّ الاختلاف الذي انعكس على النصوص الكتابية لا يؤدي بالضرورة إلى نفي ديانتهم، فقد ظلّ القرآن في عمق خطابه يشير إليهم "بأهل الكتاب" ويستدعي قصصهم ومآثرهم وهو ما سنتوّسع فيه في العنصر الموالي"ثمّ إنّ الغاية من المقارنة لا تتمثّل في تبيّن نقاط الائتلاف ومواطن الاختلاف وإنّما هي أعمق غورا من هذا السعي .. وقد يكون من باب الخطل أن يتساهل الباحث في حشد نقاط الوئام والانسجام بين ديانتين أو أكثر مدفوعا في ذلك بالفضاء التحرّري الديني المنفتح على حريّة المعتقد .."[1]

لقد كان ابن حزم الأندلسي أبرز من حاور النصوص الكتابية السابقة في إطار النقد الإسلامي لليهودية والنصرانية لكنّ السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو: كيف اطلع ابن حزم على التوراة والإنجيل؟ وهل اطلع عليها وعاد إليها فعلا؟ وإذا اعتبرنا بأنه قد درسها، فكيف توصّل إلى هذه النصوص؟ وإذا سلّمنا بأنه اعتمد الترجمة، فأيّ ترجمة اعتمد؟

وعليه، يجدر بنا التنبيه إلى خطورة هذه المسائل المتعلّقة بالأديان والتأكيد على دقتّها، فعلم الأديان وعلم الأديان المقارن ليسا بالمبحثين الهيّنين الذين يمكن الخوض فيهما بكلّ يُسر دون الاعتماد على معارف مُسبقة، فهذه العلوم تشتغل على نصوص منفلتة مراوغة تعود بنا إلى بدايات التفكير الديني، إلى مرحلة البدء؛ فالحوار بين الأديان الكتابية لا يقتصر على حشد نقاط الائتلاف والاختلاف القائمة بين نصوصها بالاستناد إلى مسلّمات جاهزة بصفة استباقيّة ترّجح هذه على تلك وإنّما "ينبغي أن ننبّه إلى أنّ الانسياق وراء ما يبدو في الظاهر انسجاما وتماثلا منذ الوهلة بين ظاهرتين أو مفهومين لا سيّما إذا ما كان العنصران المعنيان بالمقارنة ينتميان إلى دينين تجمع بينهما أواصر قرابة كثيرة مثل الدين اليهودي والدين المسيحي أو مثل اليهودية والإسلام أو المسيحيّة والإسلام"[2]، وقد نبّه جورج دوميزيل Georges Dumézil إلى خطورة اللجوء إلى التحليل المقارني لما قد ينجرّ عنه من إبراز التماثلات وحجب الاختلافات[3] أو العكس.

2ـ في الحاجة إلى علم الأديان:

ترزح مجتمعاتنا العربية تحت وطأة مغالطات مجحفة خاصّة فيما يتعلّق بالجانب الديني الذي تشوبه إسقاطات مخلّة، وهو ما يجعل الحاجة ملّحة إلى ضرورة إعادة قراءة الظاهرة الدينية ومحاورتها في ظلّ

[1] حمادي المسعودي، الظاهرة الدينيّة من علم اللاهوت إلى علم الأديان المقارن: بحث في علم الأديان، ص15.

[2] حمادي المسعودي، الظاهرة الدينيّة من علم اللاهوت إلى علم الأديان المقارن: بحث في علم الأديان المقارن، ص16.

[3] انظر: ميشال مسلان، علم الأديان: مساهمة في التأسيس، ص 160.

المتغيّرات الطارئة على المجتمعات الحديثة بتجاوز المباحث التي تنغلق على النّص لتشلّ حركته وتحُول دون متابعته لحركة التاريخ، فتُحدث شرخا عميقا بينه وبين الواقع.

وعليه، وجب على الفكر العربي الحديث التسلّح بالآليات الإجرائية النقدية المُتعارف عليها، وذلك بالاعتماد على علم الأديان وإدراجه في المؤسّسات التي تُعنى بهذه الجوانب، إذ لا يمكن بأيّ حال من الأحوال تمثّل الظاهرة الدينيّة والخوض فيها واستدعائها في الواقع دون الإلمام بتاريخ الأديان والتدقيق في الثقافات المغايرة، وتفتقر جامعاتنا العربية لمثل هذه المشاريع الفكرية التي تجعل من الحوار مع الآخر هدفا باستثناء بعض المحاولات التي شجّعت على البحث العلمي في هذا المجال.

وتمثّل الظاهرة الدينيّة، في تقديرنا، عُمدة الفكر البشري الإنساني لذلك وجب الاعتناء بها والتدقيق فيها بالاعتماد على علم الأديان الذي يكفل تكريس ثقافة الحوار والتسامح ويقطع مع المواقف الانفعالية فعلى دارس الأديان أن "يلتزم بالحياد الديني أثناء إجراء المقارنة بين دين ودين آخر أو بين ظاهرة وظاهرة دينيّة أخرى تنتمي إلى دين مخالف، وهذا يقتضي من الباحث أن يتخلّى عن نزعة المفاضلة بين الأديان، فلا يمجدّ دينا ويهجّن دينا آخر، ولا يقول بأصالة الأوّل وصحّته واقتباس الثاني من الديانات السابقة وتحريفه"[1]، ويستدعي هذا الرأي المجهود الذي بذله "الفريق الإسلامي المسيحي" وهو فريق بحث في الديانتين الإسلامية والمسيحية، ويتكوّن من أصدقاء باحثين مسلمين ومسيحيين نشأ سنة 1976 بعد ندوة عُقدت في طرابلس كانت تدور حول موضوع الحوار الإسلامي المسيحي، وقد وزّعت الأعمال على باحثين عدّة كان من بينهم باحثين تونسيين وجزائريين ومغربيين (عبد المجيد الشرفي، محمد الطالبي، مقداد منسية، محمد أركون ...) وقد اشترط في المنتمين لهذا الفريق التكوين الجامعي الحديث لتيسير التعاون حسب منهج مشترك، وضرورة توفّر أفق نقدي وموضوعي للباحث، والتخلّي عن الأفكار المسبقة، والتكافؤ في العدد بين المسلمين والمسيحيين...

إنّ هدف هذا الفريق لا يتمثّل في محو الفوارق ولا في التقليل من شأنها ولا في السكوت عنها، بل يتمثّل في الاعتراف بهذه الفوارق باعتبارها حقيقة قائمة وفي وضعها موضعها الحقيقي، فأعضاء الفريق لا يسعون

[1] حمادي المسعودي، الظاهرة الدينية من علم اللاهوت إلى علم الأديان المقارن، ص18.

إلى التخلّي عن دياناتهم لاعتناق دين جديد، وإنما غايتهم الابتعاد عن السّجال بين الأطراف الذي أدّى إلى الحروب وممارسة العنف ودراسة الفوارق بين الديانات دون طمسها أو التقليل من شأنها.[1]

تبدو الحاجة ملّحة فعلا إلى الاعتماد على علم الأديان في تنظيم علاقتنا بالآخر المختلف والتخلّي عن الأحكام المسبقة ودرء الأفكار الجاهزة لإقامة الحوار ومدّ جسور التواصل بين الأديان الكتابية التي باتت في حاجة إلى القراءة وإعادة القراءة في ظلّ الواقع الراهن.

على سبيل الخاتمة:

يمثّل "علم الأديان" دراسة موضوعية تُعنى بالمبحث الديني، الغرض منها تكريس ثقافة الحوار مع الآخر، وتمثّل النصوص عمدة المباحث الدينيّة لذا وجب الانطلاق منها لتمثّل الظاهرة وتحليلها وشرحها، خاصّة في ظلّ علاقات التفاعل البيّنة التي تجمع بين النصوص الكتابية التي تستجيب للتأثيرات: تأثير النّص السابق بالنّص اللاحق، وقد كانت بداية علم الأديان عسيرة في ظلّ فكر ثابت يتبنّى المعنى الحرفي للنصوص ويرفض إعادة النظر في الظاهرة الدينيّة التي عُزلت عن الإنسان وتعالت عن مشاغله وهمومه التي تزداد حدّة يوما بعد يوم بتأثير الفكر الانفعالي الذي يتّخذ صبغة دفاعية، لذلك وجب الانطلاق من النّص نفسه في تحليل الظواهر الدينيّة وسبر أغوار النصوص الكتابيّة التي تستجيب في جوانب كثيرة منها لإمكانية التجنيس لقيام بنيتها النصيّة على تظافر أشكال أدبية تتفاعل فيما بينها داخليّا وتستدعي نصوصا وافدة.

[1] إنّ ما ذُكر هو في الأصل محاضرة قُدمها الأستاذ حمادي المسعودي بمخبر تجديد مناهج البحث والبيداغوجيا في الإنسانيات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان/ تونس، قدّم فيها كتاب Ces Ecritures qui nous questionnent la Bible et le Coran لمؤلّف جماعي هو .G.R.I.C : Groupe de Recherches Islamo-Chrétien

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع العربية:

ـ أحمد محمد (أنهار)، اللاهوت المسيحي: نشأته وطبيعته، دار الزمان للنشر والتوزيع، ط1، سوريا، 2010.

ـ الأندلسي (ابن حزم)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الجيل، ط1، بيروت، (د.ت).

ـ ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ط1، 1958.

ـ غرديه (ل.)، مقال "علم الكلام"، تعريب: محمد غريب جودة، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج24.

ـ غرديه (ل.) وقنواتي (ج.)، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحيّة، تعريب: الشيخ صبحي الصالح والأب فريد جبر، دار العلم للملايين، ط2، بيروت 1983، ج3.

ـ المسعودي (حمادي):

ـ فنيّات قصص الأنبياء في التراث العربي، مسكيلياني للنشر، ط1، تونس، 2007.

ـ متخيّل النصوص المقدسّة في التراث العربي الإسلامي، دار المعرفة للنشر، ط1، 2007 .

ـ الظاهرة الدينيّة من علم اللاهوت إلى علم الأديان المقارن: بحث في علم الأديان المقارن، بحث مرقون.

ـ مسلان (ميشال)، علم الأديان: مساهمة في التأسيس، تعريب: عز الدين عناية، المركز الثقافي العربي، ط1، الإمارات العربية المتحدة، 2009.

المراجع الأجنبية:

karl Rahner/Herbert Vorgrimler, Petit dictionnaire de théologie catholique, E. du Seuil, 1970, article : théologie.